كباقي من ابتسمت لهم الأيام برحلة إلى إحدى الدول الغربية أخذ عبدالله شرف الدين يتحدث بكثير من الإعجاب عما شاهده وعاشه هناك خلال شهر.. وسائل حديثة متنوعة وفي كل تفاصيل حياة الناس، يوازيه كثير من الرقي في أسلوب ونظام التعامل مع هذه الوسائل فلا تخريب ولا تدمير وحرص مستمر على بقائها بذات القوة من المنفعة التي تحققها للناس.

الأمر يرتبط بشكل مباشر بسلوك الناس، ذلك لأنه يعني مسائل كالنظام العام، والنظافة العامة، وحسن التعامل، والتواصل بين الناس.

ولعله من المؤسف أن نقف دائما على مثل هكذا حقيقة دون أن نجد في أنفسنا رادعا يلزمنا تجسيدها في بيئتنا المحلية.. والأكثر مرارة هو أن هذه السلوكيات تعد من الصفات التي دعانا إليها ديننا الإسلامي فإذا بنا غرباء عنها.. نتناولها في أحاديثنا وكأن أولئك مخلوقات أخرى مختلفة ومن كواكب أخرى.

تحقيق/ وديع العبسي

قناعة حاضرة وسلوك مؤجل

التزام النظام بين القناعة والسلوك

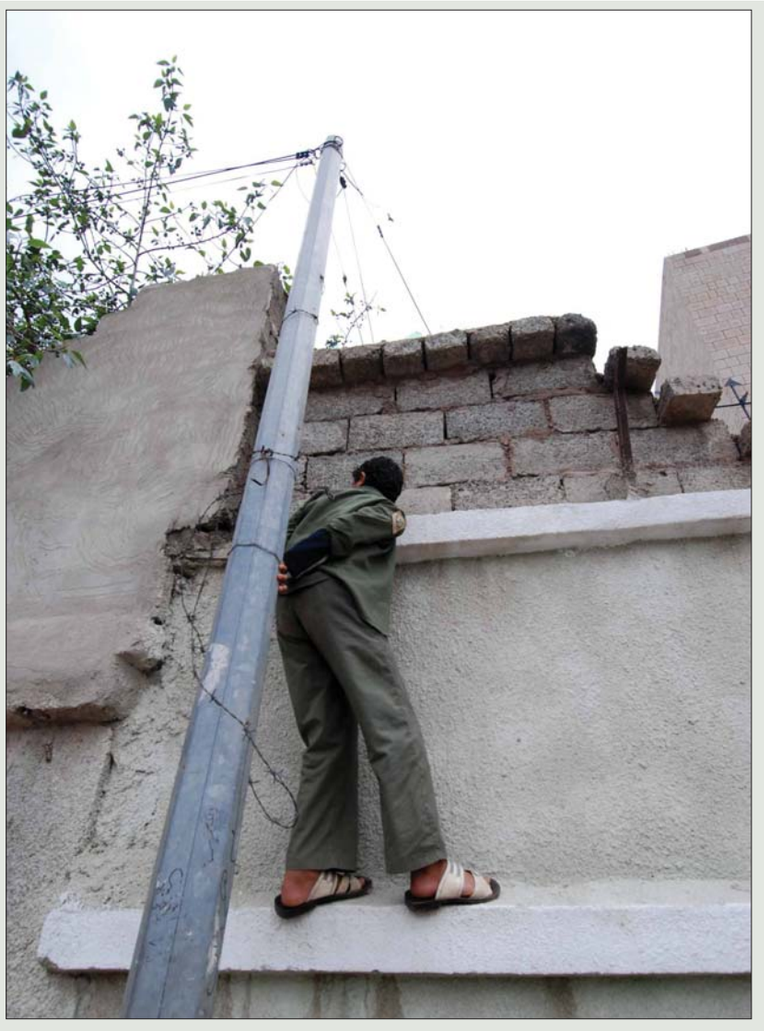

- التعليم بوابة خلق مجتمع حداثي يلتزم النظام

- المدرسة عليها دور في ترسيخ ثقافة الالتزام في البيئة ككل

قال لي عبدالله شرف الدين "هناك لم أجد بدا من الالتزام بما عليه الناس ولم يكن في هذا الالتزام أي شعور بالمشقة لكنه كان يحدث بشكل تلقائي، بل إن المرء عندما يمارس حياته بهذا الشكل المنظم فإنه يشعر بكثير من الارتياح النفسي".. سألته "ولماذا لا تبقى على نفس السلوك عند عودتك"؟ وهنا دخلنا في جدل العوامل والثقافة والإمكانات.

تؤكد دراسات أن الإنسان بطبيعته يحب النظام ولذلك فإنه تجاوز البدايات العشوائية في حياته إلى أن وصل إلى المستوى الذي صار إليه اليوم، إلا أن التسارع في التحديث والتصوير أفقدت بعض المجتمعات القدرة على المواكبة.. فاستمرار التعامل مع أدوات الحياة بما تحققه من رفاهية للإنسان يعني بشكل أو بآخر الارتقاء المستمر لهذا الأسلوب في التعامل.

وإذا كان من اتفاق على أن هناك عوامل موضوعية لها تأثيرها في أن يأخذ السلوك هذا الاتجاه أو ذاك لا تؤيد الدراسات الاجتماعية ذات العلاقة بالجانب السلوكي والنفسي إخلاء ساحة الأفراد من مسئولية توجيه السلوك.

تناقض

وإلى ذلك أيضا لا شك بأن التعليم عملية هامة وحاسمة للركون إلى إمكانية خلق مجتمع حداثي يلتزم النظام في السلوك إلا أنه بدون تعاضد عوامل أخرى من البيئة المحيطة يفقد هذا العامل أثره على الشخص المتعلم، فإذا ما التزم بدا كأنه شاذ عن الآخرين وقد لا يسلم من تهكمهم وتندرهم عليه حسب محمد عبد الرقيب سيف الأخصائي الاجتماعي في وزارة التربية والتعليم.

هذه الصورة ملموسة لكنها مع ذلك لا تلغي وجود السلوك الذي يمتثل النظام.. ويؤكد سيف أن هناك حالة من التناقض بين القناعات وبين السلوك لدى البعض، وهي مسألة تعود إلى التربية وغياب القدوة أكثر من كونها عوامل متعلقة بالمستوى الاقتصادي للأفراد وحتى لمستوى التعليم.. وأضاف "صحيح للفقر تأثير إلا أن هذا التأثير يمكن تجاوزه متى ما أرغم المرء نفسه على الالتزام الذي لن يكلفه دفع مقابل".

ثقافة الالتزام

الأصل –وإن كان لعوامل موضوعية أخرى تأثيرها– أن مجموعة القيم التي تشكل ثقافة المرء هي البنية الأساسية للتغيير.. ولذلك يلفت محمد عبد الرقيب سيف إلى ارتباط الممارسة بالالتزام، ومع توافر القناعة والتي لا يتبعها فعل ملتزم يرى بضرورة أن يكون هناك نوع من الإلزام.. مؤكدا بأنه مع غياب الرادع يغيب الالتزام.. ويشير الأخصائي الاجتماعي إلى أن هذا الرادع يمكن أن يكون عقابا جسديا أو نفسيا كمعاقبة المدرس للطالب المهمل، أو خفض الدرجات بسبب الغياب، وكحرمان الأب لولده من المصروف لسبب ما.. وعلى المستوى العام العقوبات التي تنتظم في القوانين ضد المخالفين وغير الملتزمين.

وعن محاولة ترسيخ الالتزام كثقافة في السلوك بعيدا عن التلويح بالعقوبات أوضح الأخصائي الاجتماعي بأن ذلك يمكن تحقيقه من خلال خلق بيئة متكاملة تعيش هذا السلوك في حياتها سواء في الأسرة أو في الشارع.. وقال "عندما ترى شخصا يرمي بعلبة العصير الفارغة من نافذة (الباص) إلى الشارع فما هو اتجاه التأثير الذي سيكتسبه الطفل من هذا المشهد السلبي.. أين الالتزام في هذا السلوك؟ ولماذا يصل الشخص إلى هذا المستوى من السلبية والاستخفاف بحيث لا يلتزم بالسلوك الحسن الذي لن يكلفه جهدا أو مالا.. نحن بحاجة إلى ترسيخ ثقافة الالتزام في البيئة ككل، والمدرسة بطبيعة الحال لها دور كبير في هذا الجانب، إنما أي دور يمكن أن يضيع تأثيره إذا لم تسانده الأدوار الأخرى".

احترام النظام

أما الشيخ ناصر الشيباني، ففي حثه على التزام النظام يقول "لنقهر أنفسنا على احترام النظام ولنجعل الشعور به ينبثق من داخل أنفسنا لأن حسن النظام هو الحياة وهو روح الجمال والكمال في كل أنفسنا، وسوء النظام يؤدي إلى كثير من الفوضى والاضطراب في الحياة، فما أجمل الحياة المنظمة وما أسوأ الحياة المضطربة التي لا تعرف للنظام معنى ولا تشعر بما فيه من ذوق وجمال وحياة".